تعظيم شأن الممدوح ، وتفخيم قدره ، وتكبير صفاته ، والإرباء بها على صفات الممدوحين قبله ، فلا يقنع الشاعر ولا الملك أو الأمير بالقصد فى الوصف ، والصدق المألوف فى الثناء ، ويجره ذلك الى التفنن فى معانى المدح وغير المدح ، لأن السذاجة لاترضى فى كل حين ، ولابد من شىء من التنويع واللباقة أو التفنن والاحتيال ، ومن هذا كله تنشأ المغالطة فى المعانى ، والتورية المتمحلة ، والهزل العقيم .

يستطيع المرء أن يقول بعد هذا إن البلاغة ازدهرت منذ أواسط الدولة العباسية ، وعول أصحابها على خدمة هذا الأدب والتشريع له ، فالبلاغة أقرب الى خدمة التصنع المشار اليه ، والتصنع عبارة مهمة ، تعنى أن البلاغة لا تحفل كثيرا بالسذاجة والقصد والصدق ، وإنما تميل ـ على عكس ذلك ـ الى ما نسميه المبالغة والتظرف والتسلية ، والعقاد يخاصم التظرف الذى ينبىء عن المجانة وحب الفراغ . لاريب شغل العقاد بمخاصمة الصنعة ، لأن الصنعة قرينة شهوات الفراغ المتقلبة ، والتسابق فى إرضاء طائفة من الناس ، وتكبير الصفات ، وإشاعة نوع من الهزل الذى لايتطلع إلى الجد والصدق والقصد .

عاش العقاد يحذر من خدمة البلاغة فى بعض مظاهرها للضعف والسقوط والحذلقة ، ويحذر من مغبة التلهى والتسلية ، تطلع العقاد الى النمو والنهوض والجد ، يستطيع المرء أن يقتنع بأن العقاد حارب البلاغة فى سياق يخلو من ذكرها ، ولكن مايصدق على بعض الأدب يصدق لا محالة على الملاحظات البلاغية التى احتفلت بالبديع ، وليس البديع إلا لفظا آخر يعبر عن المجانة والظرف والتلهى ، وتكبير الصفات ، والبعد عن الصدق والقصد .

لايستطيع المرء أن يتجاهل نظرة العقاد إلى الأدب فى ضوء فلسفته العامة ، ولايستطيع أن يهمل القوة التى أعطاها لكلمة الصدق وكلمة الطبع وكلمة الفطرة ، ولأمر ماقل استشهاد البلاغة الموروثة بنماذج من الشعر الجاهلى الذى كان مبرأ من الصنعة . كان الأدب ملكا مشاعا للقبيلة كلها ، ولا هزل فى أدب القبيلة ، إنما هو فخر تتطاول به أعناقها ، أو غضب تغلى به صدورها ، أو غزل تترنم به كل سليقة من سلائقها ، أو تاريخ يسجل أنباءها ، ويستوعب خلاصة تجاربها وحكمتها ، وأما بعد ذلك الطور فيغلب أن يكون الأدب ملكا للأمة عامة أو للإنسانية قاطبة ، فلكل قارىء